المنهج التربوى الإسلامى فى مرحلة الطفولة

لقد قامت دعوة الإسلام على رسالة هادفة عاملة على إيجاد أمة متكاملة لها إيجابياتها فى الحياة تأخذ منها وتعطيها، ولها كيانها العقيدى ولها كيانها العلمى بجانب كيانها العملى، ومن أول كلمة جاء بها الإسلام ندرك هذا المنهج التربوى.. ففى قوله تعالى « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ **(العلق)** « ١-٥ » **ندرك من هذا القول الكريم الذي افتتحت به الرسالة السماوية، العناية بالمنهج العلمى القائم على تعلم القراءة والكتابة وتعظيم وسائلها.. المتمثلة فى القلم وتوابعه من وسائل التعليم ثم العناية بالناحية الفكرية والفطرية المتمثلة في قوله تعالى « علم الإنسان ما لم يعلم »، ثم السمو الروحى المتمثل فى قوله تعالى « أقرأ وربك الأكرم » ومن هذا المنطق الكريم تحددت مفاهيم الدعوة الإسلامية والغرض منها فى خلق أمة مثالية وفى قوله تعالى** هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ **(الجمعة)** « ٢،١ ».

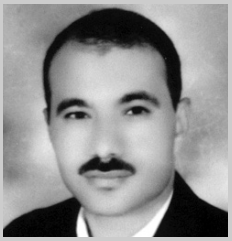

د. أشرف فتحى محمود الجندى
عضو الجمعية العالمية الإسلامية للصحة النفسية

فى هذا القول توضيح للمنهج التربوى الذى جاء الإسلام به ليخرج للناس أمة عالمة متعلمة لها منهجها ولها تربيتها ولها سلوكها فى الحياة فمن الآية الكريمة ندرك هذا الغرض واضحا.

فالمنهج العلمى فى الآية هو التلاوة للآيات والتعلم والكتابة والمنهج التربوى فى الآية هو «الحكمة ومعرفتها» والمنهج الاخلاقى والسلوكى «هو تزكيتها وطهارتها» كما اعتنى المنهج التربوى الإسلامى بالطفولة فلم يبدأ به من ساعة خروج الطفل إلى الحياة كما فعلت المناهج التربوية الأخرى الحديثة فى الشرق وفى الغرب وإنما سبق الإسلام هذه المناهج إذ نظر أولا إلى اختيار الزوجة والزوج ذلك لما لهذا الاختيار من أهمية كبرى تتعلق بها الحياة القادمة بالنسبة للنشء الذى يراد تربيته على السلوك الإسلامى. ولهذا الاختيار أبعاده العميقة واعتباراته التى لابد منها ومن الحساب لها، ذلك لأن عامل الوراثة الذى ينقل حضارة الآباء والأمهات إلى النشء لا يمكن أن ينكره عقل ولا تتعارض معه دعوة أو منهج تربوى

ولذلك نرى الإسلام يقرر البعد عن نكاح المشركة ونكاح المشرك مهما بلغا من مكانة اجتماعية أو اقتصادية فى الحياة فيقول تعالى ﴿ وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾ ﴿البقرة﴾ « ٢٢١ » ولا يقف العقل فى فهمه للآية الكريمة عند الحفاظ على العقيدة والخوف عليها إذا كانت الأم مشركة أو كان الأب مشركا، ولكن نظرة الآية فى الحياة أبعد من ذلك وأشمل. فهى وإن راعت الجانب العقيدى فلا تقتصر عليه فقط وإنما تتعمق فى أغوار بعيدة لها تأثيرها فى الحياة العامة والخاصة ذلك أن المشركة أو المشرك لا ضوابط خلقية تحكمهما ولا موازين عادلة عندهما يقوم عليها السلوك وهذا الخطر الذى يخاف على النشىء منه فى التربية الإسلامة وفى تفضيل العبد المؤمن والأمة المؤمنة على الحر المشرك والحرة المشركة تأمين للحياة القادمة. ذلك لأن توافر الضوابط الأخلاقية واعتدال السلوك يتحقق فى جانب الأمة المسلمة والعبد المسلم. وأيضا فى تحريم نكاح الزانية من الحر الشريف أو الزانى من الحرة الشريفة ما يدور فى هذا المعنى من حرص الاسلام فى منهجه التربوى على النشء وحمايته من الانحلال الخلقى ذلك لأن الزانى والزانية قد تحقق فيهما الانحلال الخلقى والانحراف السلوكى وهذا مما يخافه الإسلام فى النشء والأسرة وفى هذا المعنى تجىء أحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه: حيث يحمل المتأهلون للزواج على اختيار الزوجة الكريمة حتى يكون النشء مؤهلا للحياة الكريمة ويخرج النشء إلى الحياة بأخلاق وسلوك حميد محمود حيث يقول صلى الله عليه وسلم «تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم» رواه الحاكم والبيهقى.. وليبعد الزواج عن الرغبة فى الغرض والغرور بالحسن والجمال الجسدى.

تطهير النطفة والعناية بها فى المنهج التربوى الإسلامى

ولا تقف عناية الإسلام عند اختيار الزوجة أو الزوج بل يسير فى منهجه إلى نقاء النطفة والبعد بها عن التلوث إذا إن النطفة هى عنصر التخليق والتكوين الحيوى للنشء فنرى الإسلام يتعهدها بالطهارة حتى تكون نطفة طاهرة بعيدة عن الخبث فيأمر القرآن الكريم المؤمنين بالتغذى بالحلال والبعد عن الحرام فى المأكل والمشرب. ولعل واحداً يقول: ما علاقة هذا بالتربية التى لا تكون إلا إذا خلق الطفل أوخرج إلى الحياة؟ وللجواب عن ذلك نقول إن التهاون فيما حرم الله تعالى وأحل من المأكل والمشرب لهو أحد الصفات التى تورث للطفل من الأباء والأمهات. والإسلام حريص كل الحرص على تجنيب الطفل فى تكوينه الفسيولوجى صفة مثل صفة ذلك لأن التهاون ينتج عنه التسيب الخلقى ودعوة الإسلام ما اقامت منهجها إلا لمحاربة التسيب الخلقى فى الإنسان وتلك هى آيات القرآن الكريم الداعية إلى التحفظ عن الحرام فى الغذاء قال تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا من طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴿البقرة﴾ ١٧٢: ١٧٣.

ولقد حرم الله هذه الأشياء لا ابتلاء كما يقول بعض المفسرين وإنما لعلل وراءها يخافها الإسلام فى النشء وما يورث من صفات وهذه الأشياء التى حرمها الإسلام لها تأثيرها السيكولوجى والفسيولوجى فى تكوين الطفل فأكل الميتة رغم ما يورث من أمراض جسيمة فإنه بجانب ذلك يورث دناءه النفس وأكل الدم يورث ثقل فى الجسم كما يورث الخبث فى النفس ولحم الخنزير يولد بجانب أمراض الأمعاء البلادة فى الطبع وما أهل به لغير الله يولد الانحلال العقيدى، فإذا خرج الطفل إلى الحياة وقدورث هذه الصفات فأى منهج تربوى يستطيع تعديله والاستقامة به على طريق الحياة مهما أوتى هذا المنهج من قوة وعمق. لذلك نرى المنهج التربوى الإسلامى يعتنى

اشترط الإسلام مداعبة الأطفال على شرط أن تكون المداعبة على حد الاعتدال وأن يتجنب الإفراط فيها بل تستغل للتوجيه التربوى من الأبوين وألا يركن بها إلى طفل آخر حتى لا تخلف الأثر السيء بين الإخوة وهى العداوة

فى خطه التربوي بالنطفة حتى يتكون الطفل أو الجنين على الفطرة السليمة التى هى أصل الحياة فى الإنسان ولعل فى معاندة إبليس – لعنه الله تعالى – ربه فى الإنسان ما يوضح الشركة التى للشيطان فى الأولاد.. إذا يقول الله تعالى «وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴿الإسراء﴾ ٦٤ فلن تكون للشيطان مع الإنسان شركة فى الوطء إنما الشركة فى تحلل الآباء وتهاونهم فى غذائهم بما حرم الله تعالى عليهم فيخرج أبناء إلى الحياة وأهم ما فيهم من صفات يكتسبها الشيطان فيهم ويأخذهم بها إلى طريقه هى «التسيب الخلقى الناتج عن التهاون الموروث من آبائهم والمنقول من أمهاتهم إليهم ونطفة الرجل فى الحقيقة ما هى إلا خلاصة الغذاء الذى يتناوله الإنسان.. فإذا كان الغذاء حراما فلا ينبت إلا خبثا.

عناية الإسلام بالطفل بعد خروجه إلى الحياة

لقد اهتم الإسلام بهذه المرحلة لأنها أخطر مرحلة فى حياة الإنسان ذلك لأنها المرحلة الأولى التى يستقبل بها الطفل الحياة والتى يكون فيها الطفل جهاز استقبال فقط يأخذ من الحياة أو يحاول التجاوب معها بعمل لا إرادى منه والإسلام يركز اهتمامه وعنايته بهذه المرحلة التى لم ينتبه إليها علماء التربية الحديثة إلا بالقدر اليسير من التوجيه والإرشاد وإن كان اهتمامهم قد انصب فقط على التربية الجسمية بينما اهتم الإسلام في هذه المرحلة بالتكوين النفسى بجانب التكوين الجسمى للطفل.

فأما أهتمام الإسلام بالتكوين الجسمى فلقد أقر مدة الرضاعة كاملة وجعلها عامين حيث قال تعالى وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴿البقرة﴾ ٢٣٣، ذلك لأن الرضاعة هى عنصر الغذاء الوحيد للطفل فى هذه المرحلة وللعناية بها. وفرض الإسلام نفقة للأم تزيد على نفقتها العادية المقررة لها فى المعاشرة الزوجية بل توسع فى النفقة على الأم فى الرضاعة

مرحلة الطفول من أخطر المراحل التى يكون فيها الطفل محتاجا إلى المصادقة والمصارحة

حتى شملت الغذاء والكساء حيث قال تعالي « وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ» ﴿البقرة﴾ ٢٣٣ وفى حالة التعسر: نرى الإسلام يرعى الطفل ويلزم الوالد بإحضار مرضعة غير أمه يشملها الوالد بالنفقة الشاملة والرعاية الصحية حتى يتغذى الطفل من مصدر قوى وفى قوله تعالي « وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ » ﴿الطلاق﴾ ٦، لا يقصد فقط به التعاسر فى الرضاعة بامتناع الأم عن الرضاعة بل يشمل حالة عدم توافر الرضعة فى الأم حتى لا يتغذى الطفل لبنا قد يكون سببا في ضعفه جسمانيا.. وما تلك إلا عناية من الإسلام فى منهجه التربوى فى رعاية الطفل. ويجعل الرسول ﷺ «حسن التغذى فى هذه المرحلة بجانب حسن الرعاية والتعليم» من وسائل النجاة من الوقوع فى النار يوم القيامة. ويضع الرسول ﷺ هذا الحسن فى موازين العبادة حيث يقول ﷺ : «من كانت عنده جارية فغذاها فأحسن غذاءها، ورباها فأحسن تربيتها، وعلمها فأحسن تعليمها. كانت له وقاية من النار» رواه ابن ماجة وأحمد.

التكوين النفسى عند الطفل

لقد حرص الإسلام على أن يرعى التكوين النفسى عند الطفل منذ التهيؤ للزواج على خلاف ما قاله علماء النفس والتربية الحديثة فإن علماء النفس والتربية لا يرعون هذه المرحلة ولايعلقون علمهم بها إلا ساعة أن يدرج الطفل بين أبويه. وهذه المرحلة تسبقها مراحل أخرى من نظر الإسلام ولقد اهتم الإسلام بتلك المراحل لأنها فى نظره وتقييمه القاعدة الأولى التى تبنى عليها بقية مراحل النمو والتكوين والتربية الحقة، فاشترط الإسلام عند الزواج أن يتوافر التكافؤ بين الزوجين.. والتكافؤ الذى اشترطه الإسلام جعله شرط صحة فى عقد الزواج وهو أشمل من كل أن يكون تكافؤ فى الدرجة الاجتماعية بل الإسلام يضع هذا النوع فى آخر مرتبة للتكافؤ وانما التكافؤ الذى أراده الإسلام هو أولا فى الخلق ثانيا فى المزاج ثالثا فى العمر رابعا فى الدرجة الاجتماعية وقبل هذا كله التكافؤ فى العقيدة ولعل من يقول ما علاقة هذا بالتكوين النفسى عند الطفل؟ نقول إن مراعاة هذه الأنواع من التكافؤ مما له أكبر الأثر فى التكوين النفسى عند الطفل ذلك لأنه لابد من توافر الانسجام القائم على المساواة فى كل النواحى التكافؤية فبالتكافؤ تتحقق المحبة والألفة والمودة بين الزوجين وتزداد يوما بعد يوم حينما تكون المماثلة فى المكانة الاجتماعية فلا كدر ولا مشاكسة ولا إحساس بالفوارق مما يؤثر فى حياة الأطفال وفى تكوينهم النفسى وكم من طفل خرج للحياة بين أبوين غير متفاهمين لسنة الزواج فحمل بين جنبيه نفسا مريضة مليئة بالعقد التى قد يستطيع التنفيس عنها بالشغب أو بالاتلاف فى بيئته الصغيرة – المنزل – ثم بالانحراف والتسيب الخلقى فى مجتمعه الخارجي وهذا مما يحسب الإسلام له فى منهجه التربوى ألف حساب.

ومما اشترط الإسلام توافره بين الزوجين فى بيت الزوجية لمراعاة التكوين النفسى عند الطفل أن تكون المداعبة بين الزوجين قائمة فى كل مجال فى المحادثة والملاعبة والفكاهة والمشورة وفى العمل المنزلى علي شرط أن تكون بعيدة عن المداعبة الشائنة التى توحي للطفل بالنمو الجنسى المبكر ولقد كان رسول الله ﷺ يداعب زوجاته ويلاعبهن وفى حديث السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها خير دليل علي ذلك فقد قالت إنها كانت تلاعب الرسول ولما كان البيت لا يخلو من المشاكل البيئية والمعيشية اشترط الإسلام أن تكون بعيدة عن الطفل وأن يباشر الزوجان حلها فى جو التفاهم والود والاستئناس بالرأى واحترامه حتى لا يورث الطفل تنافرا من أحد الوالدين خصوصا إذا علمنا أن الطفل أكثر تعلقا بأمه.

وكذلك اشترط الإسلام مداعبة الأطفال علي شرط أن تقوم المداعبة على حد الاعتدال وأن يتجنب الإفراط فيها بل تستغل للتوجيه التربوى من الأبوين وأن لا يركن بها إلى طفل دون آخر حتى لا تخلف الأثر السيىء بين الإخوة وهى العداوة ونحن إذا قرأنا قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع إخوته نرى العامل الأكبر الذى حمل إخوة يوسف عليه السلام على التخلص منه إنما هو زيادة الاهتمام من سيدنا يعقوب عليه السلام بيوسف دون إخوته ولعل سيدنا يعقوب كان على حق فى هذا ذلك لأن إخوة سيدنا يوسف كانوا أكبر منه سنا ولا زال هو طفلا فلقد حملت إلينا الآيات هذا القول الصادر من إخوة يوسف عليه السلام حيث قالوا: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ » يوسف ٩

ففى قولهم يخلو لكم وجه أبيكم أن يخلص لكم حبه والركون إليكم والإسلام يرى أن مرحلة الطفولة من أخطر المراحل التى يكون فيها الطفل محتاجا إلي المصادقة والمصارحة.. لأن المصادقة والمصارحة تنطبع فى نفسه البريئة فيشب عليها ويخرج إلى الحياة بعيدا عن التمويه والكذب والنفاق ولذلك حارب الإسلام الوعود الكاذبة التى قد يعمد إليها الآباء كوسيلة للتخلص من مطالبة الأطفال لهم أوالعمد إلى كفهم عن الصياح والبكاء..خصوصا إن كان فى البيت ضيف.

إن ما يعمد إليه الآباء والأمهات فى هذه المرحلة يقدر خطرها الإسلام ويطالب بتجنبها وهناك البديل عنه وما يستطيع به الآباء الوصول إلى ما يريدونه من أطفالهم دون الوعودالكاذبة ولقد كان فى زمن الرسول ﷺ موقف من هذه المواقف حيث كان الرسول ﷺ فى ضيافة أحد الصحابة ولهذا الرجل طفل كثير البكاء.. فسمع الرسول ﷺ أم الطفل تقول له: إن سكت أحضرت لك ثمرة.. فقال لها الرسول ﷺ لو لم تعطه شيئا كتبت عليك كذبة» رواه البخارى.

وهذا هو موقف الإسلام التربوى فى تكوين الناحية النفسية عند الأطفال.